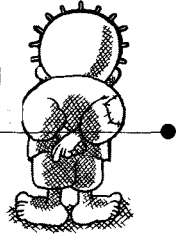


ناجي العلي: سحر الكرامة



الأرض عندما تنتكر بهيئة إنسان

أحمد مطر

في حديثي

يُفهم هذا الشعورَ مَنْ تفتَّحتْ عيناه على الخضرة العارمة المتدفقة على رسلها في الحقول، ومَنْ غاصت رجلاه في طين البساتين، ومَنْ امتلأت رئتاه برائحة التراب بعد المطر. وقد يبدو الأمرُ صعبةً للتعبير عن الارتباط بالأرض، لكنني - كما عرفتُ صاحبي - أُمِنح نفسي حقَّ القول بيقين إنَّ ناجي كان هو نفسه صيغةً شرعيةً للتعبير عن الأرض ذاتها، لا مؤردً هنا للتشبيه أو الكناية أو الاستعارة، حيث يسقط الفرقُ بين أن يكون المرءُ مُترعاً بروح الأرض، وبين أن تكون الأرضُ مشبعةً بروح المرء.

إنَّ ناجي، بهذا الوصف، هو بحقُّ صورةُ الأرض عندما تنتكرُ بهيئة إنسان!

أسماء مترادفة

كان بسيطاً، طبيئاً، عميقاً، عنيداً، صابراً، ثرُ العطاء. وهل تلك إلا انعكاساتُ شظايا مرآة الأرض؟

كلُّ شيء، كان يُعغرس في أعماقه، إنَّما يعود ليتفجَّر على «صفحته» بشكله الأصلي، دون مواربة أو مجاملة أو تجميل. ومثلما تُبرز الأرضُ محتوى بذور الأشياء، كان ناجي يُبرز محتوى الكائنات المستقرّة في أعماقه بهيئتها، حيث لا يُمكن لأيّ شيطان أن يغطّي اللعنة الملتصقة بجبينه بمساحيق العفو أو بطلاء المغفرة.

خذْ آيةً لوحة لناجي، وتأمّلها، إنَّك لن ترى إلا نباتاً طبيعياً: هو بسيط لكنه أصيل.. وهو مقتصد لكنه غنيّ. نبات لم يستعِرْ بذوره من أحد، ولم يستوردْ سماً من أحد، ولم يُطلب سقايةً من أحد. اللوحة تُشخص من أرض الصفحة نسيج وحدها، لا تحمّل غير ملامحها. شجرة هي الأرض، والأرض هي ناجي.

أكان اتفاقاً أن يولد ناجي في قرية اسمها «الشجرة»؟! تلك الشجرة الطيبة أنبتت شجرةً طيبةً، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربِّها. مَنْ لم يرَ ناجي، بإمكانه أن يراه، متى شاء، في رسومه. فناجي ورسومه والأرضُ أسماء مترادفة لشيء واحد:

صورةُ شجرة الأرز في العلم اللبناني تُضرب بجذورها في الأرض، رغم أنَّها مجرد رسم لقماش على ورق! إنَّها روحُ ناجي التي تطبع المستحيل بطابعها الممكن.

سارية العلم، النابتة في الأرض، تتفجَّر عن غصن، والغصن يتفجَّر عن براعم وأوراق وراية، رغم أنَّ السارية خشبة ميتة. ذلك لأنَّ كلَّ ما يُنبت في الأرض، هو عند ناجي، حيٌّ، ومورق، وبشارةً بالميلاد حتى لو كان حديداً.

إنَّ الموجة المرتطمة بالشاطئ لا تعود إلى البحر.. بل تتحوّل - عنده - إلى يدين تشبّهان بالأرض.

في ظهيرة يوم صيفيٍّ من أيام عام ١٩٨٦، اجتمعنا على مائدة الغداء بمنزلي، وكان بابُ الصالة مشرعاً بوجه الحديقة المجنونة، حيث الأعشاب التي أهملتُ قصّها قد استطلت بوحشية عاتية حتى أصبحت قطعة من الأدغال. وكانت دفعاتُ الهواء المتأثية تُغلغل أصابعها فيها، مسرحةً هاماتها بتموجات متصاعدة، باعثةً وشوشةً عميقةً موحية.

كان ناجي يحدِّق فيها مستغرقاً.

قلتُ في ما يُشبه الاعتذار: «لم أجد وقتاً لقصّها». لكنّه هتف باستنكار: «ولماذا تقصّها؟ هي هكذا أجمل. أنظر إليها. إنَّها تصرخ بكلِّ براءة الطبيعة. أتعرف كم أحبُّ هذا المنظر؟ أودّ الآن أن أنطلق راکضاً خلالها وكأنتني في الأحرار. هكذا أشعر بعدوية الأرض وهي على فطرتها. إنَّها غيرُ الأرض الخارجة من صالون التزيين، والجالسة حسب قواعد الإتيكيت». قلتُ له ضاحكاً: «اغتمت الفرصة، إذن، قبل زوالها، وقم فاركض خلالها بعد الغداء». ضغط على يدي ضغطة متوسلة: «لا تقصّها».

لم يكن ممكناً، بالطبع، أن تبقى هذه الأعشاب الطفيلية دون قص. لكنني كنتُ أفهم شعور صاحبي جيداً، ولعلني كنتُ مثله مُغرماً بمنظرها المتوحش ذاك. ولهذا، فقد أحسست - ساعتها - بأنَّ نبرته التي كانت دفاعاً حاراً عن أعماقه، إنَّما هي دفاعٌ ضمنيٌّ عن أعماقي أنا.



أحمد مطر

ما أبشع من يأتي فلسطين سائحاً
يتقلب فوق ترابها وقلبه فارغ منها إلى
حد الاختناق

ما أبشع من يأتي فلسطين سائحاً، يتقلب فوق ترابها وقلبه فارغ منها إلى حد
الاختناق!

وما أعظم من يأتي فلسطين سائحاً في فراغ المنفى وقلبه ممتلئ بها إلى حد التنفس!
في موازاة ذلك الوطن الماشي على قدمين لاتزال تمشي، في ذاكرة أنفاسي، رائحة
التربة الطرية المختلطة بشميم العشب الندي، ساعة كنا نُنزل جثمانه الطاهر في القبر
المحفور حديثاً. وفي ما كان «جوهراً العلي»، شقيقه الأكبر، يحثو التراب فوقه، كانت
عيناه مغرورقتين بالدمع السخين، وكان صوته المخنوق بالعبارة الموجهة ينصب في
سمعي كماء النار: «رحمة الله عليه.. ناجي كان يحب رائحة الأرض».

وأمنت على نحيبه بهزة رأسي وانهمار دموعي. غير أن حسرةً بحجم الكون كانت تضج
في أعماقي مَعولة:

«ناجي.. هو الأرض نفسها».

لندن

أحمد مطر

تساعن من نبي زميس في سن.

والعربي الزاحف نحو «النبعة» هو كائن
من الطين اليابس المتكسر؛ هو الأرض
نفسها عندما تظلم. أما اللافتة المشيرة
إلى طريق النبعة، فيكفيها الاسم المخطوط
فوقها لكي تبرعم وتورق.. لا بد لها أن
تورق.. أليست مزروعة في الأرض؟!

عندما تقتلع الجرافة الإسرائيلية تراب
الأرض لإقامة المستوطنات لشذاذ الأفاق،
يظل الفلسطيني متشبهاً بقطعة التراب
مواصل غرس شجرته بإصرار وعناد،
فوق رافعة الجرافة.

أطفال ناجي يصنعون دباباتهم بالحجارة،
يرجمون الغاصب بالحجارة، وكومة
حجارتهم نفسها تكتب بنفسها كلمة «لا».

يدُ الثائر الفلسطيني القليل تُندلع من
قبرها كالنبتة، حاملة علم فلسطين.
الأطفال والفتيان والنساء والرجال تتطوح
أيديهم حرةً طليقة كالعواصف وهي تُقذف
المغتصبين بالحجارة، لكن أرجلهم ليست
سوى جذور أشجارٍ عنيدة تُندفع بعيداً
في أعماق الأرض.

ذلك هو ناجي العلي: رجلٌ حَمَلَ في
صقيع غربته الطويلة دفء تراب فلسطين
- كامل تراب فلسطين - وامتزج به حتى
صاراً شيئاً واحداً.

من هذه الزاوية يبدو البونُ الشاسعُ بين
الشهيد الأبي والشاهد الذليل، بين القاتل
الحي والقاتل الميت، بين القمة والمستنقع،
بين أن تكون فلسطين هي فلسطين بكل
حبة رمل وكل حبة قلب.. وبين أن تكون
مجرد مخفرٍ وبساطٍ أحمرٍ وقطيعٍ من
الجنדרمة!